مصادر الادب العباسي

ــ منهج البحث ــ

بقلم : الدكتور علي الزبيدي
استاذ مساعد في قسم اللغة العربية

ليس المقصود بدراسة مصادر الأدب العباسي تعداد الأصول القديمة والمراجع الحديثة التي تخص أدب هذه الفترة ولا تهيئة قوائم طويلة بأسماء المؤلفين المشهورين والمغمورين . وليس المقصود منها أيضاً دراسة وتحليل كل كتاب يتناول أدب العصر عامة ، أو يدرس موضوعاً من مواضيعها خاصة ، فطول العصر العباسي الذي زاد عن خمسة قرون ، وضخامة أدبه ، وكثرة الكتب التي تناولته تجعل هذا العمل بعيداً جداً عن الإمكان . أما تنظيم القوائم المقومة بأسماء الكتب والمؤلفين فمضيعة للوقت والجهد ، إذ يكفي أن يتصفح المرء فهرست أحد البحوث الجيدة في موضوع يخص هذا العصر ، ليجد [illegible] حولا مجموعة كبيرة من مصادر القرون العباسية الخمسة .

المطلوب هو أن ندرس أبرز مصادر هذه الفترة دراسة منهجية دقيقة ، فنحلل معلوماتها ونشرح المناهج التي اتبعها مؤلفوها في فترة زمنية معينة ، ونلاحظ التطور الذي طرأ على هذه المناهج في الفترات التالية ونضع يدنا أو نطلع على الوسائل التي اتبعها المؤلفون في جمع المعلومات عن الموضوعات التي تناولوها ، والمصادر التي اعتمدوا عليها ، ثم البواعث التي دفعتهم الى هذا الجمع والتدوين والعوامل المختلفة التي يمكن أن تؤثر في الرواة أو النقلة فتؤدي الى الكذب أو الانتحال أو التزوير أو التحريف أو المبالغة والتبديل والتحريف أو نحو هذا وذاك من أنواع التلاعب بالحقائق والأخبار . وليس من شك في أن دراسة عدد من المصادر الموثوقة أو المهمة يكوّن لنا فكرة واضحة عن المصادر الثانوية الأخرى فيوفر علينا جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً . كما أن الحديث عن طائفة أو مجموعة من الرواة والمؤلفين الكبار يغنينا عن التطرق الى صغار المؤلفين والخوض في تفاصيل ليست ذات قيمة ، فالإحاطة بكل شاردة وواردة محال ، والإلمام بكل تنوعه وحجمه .

وما دامت الفترة طويلة ، ومصادرها كثيرة فقد يكون من المفيد أن نستجيب إلى الذهن تقسيم الفترة العباسية لأنه يساعدنا على تصنيف المصادر في مجموعات ، ثم دراسة كل مجموعة على حدة ، فقد نجد أنفسنا مضطرين إلى عدم التقيد بتقسيم الفترة العباسية إلى أربعة عصور ، لأن العصر العباسي الأول والثاني تكاد تجتمع كل مصادرهما التاريخية في مصادر أولية متعددة تكون في رأينا مجموعة واحدة ، ويكاد ينطبق هذا أيضاً على العصرين الثالث والرابع مع ملاحظة أعداد من الفوارق في الوسائل التي اتبعها مؤلفو مصادر العصرين الأخيرين والمناهج التي اتبعوها بما سنتعرفه فيما بعد .

وقد قسم بعض الباحثين الفترة العباسية إلى عصرين كبيرين : أول وثاني أو إلى دورين رئيسيين : دور المركزية وسيطرة بغداد على الأطراف أو دور الانقسام وتعدد المراكز الحضارية ، وأقول لعل هذا التقسيم أكثر فائدة في مجال دراسة مصادر الأدب العباسي ، وآية ذلك أن هذا التقسيم ينعكس على المصادر وعلى المناهج والأساليب التي اتبعها مؤلفوها بحيث يمكننا من أن نعزل أو نجمع طائفة منها ونقول إنها تخص الدور الأول لأنها انحصرت في دراسة النشاط الأدبي المتركز في العراق عامة وفي البصرة والكوفة ثم في بغداد خاصة ، ونستطيع من جهة ثانية أن نجمع طائفة أخرى ونميز فيها مناهج وأساليب مشتركة كأن أبرز ما فيها (إقليميتها) أو دراسة النتاج الأدبي حسب الأقطار أو الأقاليم فتعكس الصورة التاريخية التي وصفها المؤرخون بدور الانقسام أو دور تعدد المراكز أو اللامركزية ... الخ . ونحسب أن هذا التقسيم العام لا يمنعنا من تصنيف المصادر حسب أنواعها أو مناهج تأليفها فهذه كتب تراجم ونسب ، وهذه كتب بلاغة ونقد ، وهذه مصادر بلاغية ونقدية وتلك كتب فهارس وأدب عام ... الخ .

ولا نرتاب مطلقاً أنا لم نوفق إلى الصواب في تقسيمنا هذا لأن الباحثين ومؤرخي الأدب لم يعنوا العناية اللازمة بدراسة تدوين الأدب العباسي ولم يتناولوا هذا الموضوع أو يتطرقوا إلى الظروف والعوامل التي أحاطت بالتدوين

وأثرت فيه فتركوا مجاله للبحث عن منهج أو خطة . ولسبب من الأسباب ما سنحاول أن نبين هذا التقسيم المزدوج لمصادر الأدب العباسي . فكتاب الأغاني الذي ألف في النصف الأول من القرن الرابع الهجري يقف حداً فاصلاً بين المنهج الذي اتبعه الرواة والمؤلفون في القرنين الثالث والرابع ، والمنهج الذي سار عليه صاحب يتيمة الدهر ودمية القصر وخريدة القصر وغيرهم من مؤرخي آداب القرون العباسية المتأخرة . ومن يتأمل المدونات والمنقولات التي ظهرت خلال الفترة الأولى أي فترة القوة المركزية ، والمنقولات والمدونات التي كتبت في الفترة الثانية يجد ثورة ملحوظة في منهج التقييد وطريقة النقل والرواية وأساليب التبويب والتأليف . هذا بالإضافة إلى نظرة مؤلفي الفترة الأولى إلى الأدب العربي كوحدة متصلة المركز والأطراف ونظرة مؤلفي الفترة الثانية إليه كوحدات تتوزع على الأمصار أو الأقاليم . فإذا كانت المجموعة الأولى من المصادر تعكس خصائص الفترة الأولى أو فترة القوة المركزية فالمجموعة الثانية تعكس الفترة التاريخية الثانية أو فترة انقسام المملكة إلى دويلات وتوزع الحضارة على عدة مراكز .

لقد حظي الأدب الجاهلي بعدد من البحوث التي درست عمليات روايته وتدوينه وكشفت نشاط الرواة الذين اشتغلوا بذلك . ولكن الأدب الإسلامي الأموي وأدب الفترة العباسية لم يكن له نصيب من هذه البحوث فنحن لا نعرف متى دونت أخبار وأشعار القرنين الثاني والثالث الهجريين ، ولم ندرس المنهج والطرائق التي اتبعت في هذا التدوين ، ولم نتعرف على الرواة والمؤلفين الأوائل الذين حفظوا هذا الأدب من الضياع ولم نكتشف الدوافع التي دفعتهم إلى هذا العمل والوسائل التي ساعدتهم على تحقيقه .

نحن بحاجة إذن إلى دراسة رواية الأدب العباسي وعمليات حفظه وتقييده أو تدوينه بالأسلوب الذي درسنا به تدوين الأدب الجاهلي . ولكن مثل هذه الدراسة صعبة ، ذلك أن الباحثين لم يهتموا بها ولم يدرسوها ولم يحسبوا

حالاتها وصورها . فظلت أرض هذا الحقل بكراً ، وفي عدد كبير من الرواة والمؤلفين الذين عنوا بتاريخ الأدب العباسي في عهده الأول .

يقول الأستاذ أحمد عبدالستار فراج في مقدمة كتاب طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز :

« عُني رواة الحديث الشريف بأن يثبتوا أخبارهم ويدونوا تراجمهم ، لما في ذلك من توثيق مروياتهم المتصلة بأمور الدين وأحكام الشريعة التي تبنى على الصدق وتجنب الشبهات . أما رواة الأدب فإن تراجمهم لم تجد من العناية ما وجده رجال الحديث ، لما لم يكن للرواية الأدبية ما يذكر من شعر أو نثر . ومن الرواة من لا نعرف له إلا أنه كان ممن يحضرون رجال الأدب ومجالسهم ومساجلاتهم ، أو كان مدمناً على شراب ، أو حاضراً دعوة ، أو هو من الأتراك والمماليك . وفي كتابنا هذا (طبقات الشعراء لابن المعتز) وفي كتب الأغاني وغيرها من الكتب التي اعتمدت في رواية الأدب على السند ، لا نجد فيما نعرف من كتب التاريخ والتراجم ترجمة لأعلام رواته ، بل إن كثيراً منهم لا نعرف أسماءهم كاملة ، لأن المؤلف لم يذكر كناهم أو ألقابهم ، بل إن جهالة الأسانيد قد يتناول شعراء وأدباء روى عنهم المؤلف وأطال فيه ذكر الأسانيد »(1) وقد أكد الأستاذ فراج هذا أيضاً في موضع آخر قائلاً : « وأغلب الناس يتضايقون من سلسلة الأسانيد ويتجهون إلى الرواية نفسها وما فيها من طرائف ومعلومات لا يعنيهم شأن الرواة في قليل ولا كثير ، مع أن فريقاً منهم جديرون بالعناية والتقدير »(2) ولولا اهتمام بعض المستشرقين بدراسة العباسيين لفقدنا البحوث التي تعرفها كما فعل المستشرق الفرنسي بلاشير في رسالته عن المتنبي(3) ، والمستشرق

---

(1) أحمد عبدالستار فراج في مقدمة طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ص ١٠ .

(2) فراج : مقدمة أخبار أبي نواس لابن منظور ص ٧

(3) بلاشير : أبو الطيب المتنبي (بالفرنسية) باريس ١٩٣٥ .

الروسي الأستاذ كراتشكوفسكي في رسالته عن أبي الصمعة (٤) وفي المقدمة التي صدر بها ديوان الشاعر الدمشقي (٥) وكما فعل بعض طلابه كالدكتور صالح الأشتر في رسالته عن البحتري (٦) والدكتور علي جواد الطاهر في رسالته عن الشعر العربي في العصر السلجوقي (٧) وكتاب حسنه مسعود في رسالته عن أبي العتاهية وشعر الزهد في القرن الثاني وفي كتابه (في الأدب العباسي) (٨) وملاحظات الدكتور عباس اقبال في مقدمة طبقات الشعراء لابن المعتز الذي نشره في لندن (٩) وما كتبه الدكتور سامي الدهان في مقدمة ديوان أبي فراس الحمداني ، ومقدمة المستشرق ليروزوشيفت في رسالته عن دعبل الخزاعي ... الخ أقول ولا عند البحوث التي وجهها واشرف عليها المستشرقون ليدلنا على اقدام بدراسة مصادر الأدب العباسي عامة أو دراسة مصادر بعض جوانبه خاصة . ولا ريب في أن الفضل يعود لهؤلاء أيضاً وفقاً في شيء من هذه الدراسة وعلينا أن لا ننسى أيضاً فضل عدد من المختصين بالتاريخ الإسلامي كالمستشرق الفرنسي سوفاجيه والمستشرق الانكليزي برنارد لويس والدكتور عبدالعزيز الدوري (١٠) والدكتور صالح العلي (١١) من العراقيين والدكتور صلاح الدين المنجد وشكري فيصل من الاخوان السوريين والدكتور طه حسين واحمد عبدالستار فراج وعبدالسلام هارون وغيرهم .

---

(٤) موضوع رسالة ماجستير بالجامعة الروسية قدمت لجامعة لننغراد سنة ١٩٢٦

(٥) سامي الدهان مقدمة ديوان أبي فراس الحمداني ص

(٦) صالح الأشتر - البحتري - رسالة دكتوراه قدمت لجامعة باريس عام ١٩٥٦

(٧) علي جواد الطاهر - الشعر العربي في العصر السلجوقي من رسالة دكتوراه قدمت لجامعة باريس ١٩٥٤ .

(٨) انظر كتابه : في الأدب العباسي ، وملاحظات والأبحاث في الأدب العباسي مجلة كلية الآداب العراقية العدد ١ و ٢

(٩) انظر مقدمة طبقات الشعراء لابن المعتز طبعة لندن .

(١٠) انظر مجلة ARABICA الجزء ٢ العدد ٣ سبتمبر ١٩٦١

(١١) انظر كتابه بداية التاريخ العربي .

اذا أمعنا النظر في حركة (تقييد العلم) كما يسميه الخطيب البغدادي(١٢) والسلف من البحوث التي أشرنا اليها والتي تناولت رواية الأدب الجاهلي(١٣) وجدنا ان حركة التدوين وجمع الأخبار كانت تجري على مراحل :

ففي القرن الثاني للهجرة ومطلع القرن الثالث ، انشغل الرواة والمدونون بالأدب الجاهلي والاسلامي واستنفدوا نشاطهم في عمليات روايته وجمعه وتدوينه ، وحفظوا لنا التراث الأدبي القديم ولا سيما تراث الشعر العربي في عهدي الجاهلية والاسلام .

أما الشعراء والأدباء الذين عاصروا رواة الأدب الجاهلي والاسلامي ولاسيما الشعراء والكتاب الذين اطلق عليهم اسم المولدين أو المحدثين وهم الذين ظهروا ابتداء من القرن الثاني للهجرة ، فلم يحظوا باهتمام الرواة الذين عاصروهم أعني رواة القرن الثاني لا لأن اولئك الرواة قد شغلوا بتدوين التراث القديم فقط ، بل هي طبيعة الأشياء ، اذ ليس من المألوف أن يركز الرواة والمدونون جهودهم في جمع أخبار وأشعار معاصريهم من الشعراء والكتاب ، في وقت لما تنته فيه عمليات تدوين التراث القديم . فكان لابد من مرور مدة من الزمن لكي تنجلي الأمور ، وتستقر الحركات الفنية والأدبية وتتجمع الأخبار والنصوص الشعرية ، ويفرق الناس بين الغث والسمين ، ويحكم الزمن بخلود هذا الشاعر أو الأديب والنسيان بذاك الشاعر أو الكاتب .

ولعل من المفيد أن نشير الى أنه في الوقت الذي كان فيه رواة القرن الثاني يستخدمون كل الوسائل الممكنة لرواية الأدب الجاهلي والاسلامي وتدوينه ويبذلون كل الجهود لدراسته ونقده كانوا هم أنفسهم يعرضون عن المحدثين

---

(١٢) انظر كتابه :

(١٣) انظر كتابه التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة .

المباشرين أو الرواة الناقلين والراوين لأشعار وأخبار معاصريهم من الشعراء والكتاب . وهنا يجب أن نلاحظ ظاهرة مهمة وهي أن الجيل الأول من رواة الأدب الجاهلي البارزين كمحمد بن السائب الكلبي ١٤٦هـ / ٧٦٣م وأبي عمرو بن العلاء ١٥٤ هـ / ٧٧٢ م وأبي الحكم عوانة بن الحكم الكلبي ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م والمفضل الظبي ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وحماد الراوية ١٥٦ هـ / ٧٧٢ م وخلف الأحمر وغيرهم قد قصروا في نقل أخبار معاصريهم من شعراء مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية أو شعراء صدر الدولة حماسة لا يتقابل وشوقهم الى حماستهم للأدب القديم . ولهذا لا نجد من أسمائهم إلا ترددا كثيرا في أسانيد كتاب الأغاني الخاصة لأخبار وأشعار الطبقة الأولى والثانية في شعراء القرن الثاني ، كما لا نجد لهم ذكراً كثيراً في المصادر الأخرى ذات الأهمية كتاريخ بغداد أو طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز أو غيرهما . وليس في هذه الظاهرة غرابة ، إذ لم يكن زمنهم متسعاً أو مبكراً بالقياس إلى شعراء القرن الثاني ، هذا فضلاً عن أن رواية الأدب القديم وتدوينه كانت تشغلهم الشغل ، حتى تعصب أغلبهم بحكم هذا الانشغال بأدب الأوائل لغرض من أغراض مقصوداً عن أدب معاصريه وشعرهم كأبي عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر وأضرابهم الذين كانوا يتجاهلون معاصريهم من الشعراء والكتاب تجاهلاً تاماً ، وفي كتب الأدب كثير من الأحكام القاسية تعلق بها هؤلاء وأضرابهم للإزراء بشعر معاصريهم وأدابهم (٤٥) لا نريد أن نعود إلى الاشارة إليها في هذا البحث رغم هذا فنحن لا نستطيع أن نحصر أغلب رواة القرن الثاني الهجري في هذه الطائفة التي تعصبت للقديم بل يجب أن نستثني عدداً منهم ومن تلامذتهم

---

(٤٤) انظر كتاب : تقييد العلم للخطيب البغدادي تحقيق يوسف العش ، دمشق ١٩٤٩ .

(٤٥) انظر طه حسين : في الأدب الجاهلي ، وناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وبلاشير : تاريخ الأدب العربي .

كأبي عبيدة والأصمعي وحتى ابن الأعرابي ، لماذا ؟ لأن هؤلاء وأضرابهم عاصروا بشاراً وأبا نواس وأبا العتاهية ومسلم بن الوليد وغيرهم من شعراء عصرهم فتذوقوا بعض شعرهم واعترفوا لبعضهم بالتقدم والتفوق ولا سيما بشار وأبو نواس . ولقد اعتبر مقياس الأصمعي في أوائل القرن الثالث قيداً لهم منع من الوقت الاهتمام بالشعراء والكتاب الذين سبقوهم من الجاهليين أو المخضرمين . ولهذا نجد أسماءهم تتردد في أسانيد بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وغيرهم من شعراء القرن الثاني كمحمد بن يسير تنتهي عند أسمائهم سلاسل الإسناد ، علماً بأن كل واحد منهم قد اهتم بما يلائم ذوقه ومزاجه وما اختص به أو ما له ميل إليه بشكل عرف به فهذا يعنى بالشعر والنسب والأيام وذاك يعنى باللغة ودلالاتها وشواردها وغريبها ، وهذا يميل إلى النحو والإعراب وذاك يبحث عن المعنى الطريف في المبنى الجميل ينوء بالأنس ؛ وقد ظهر على مرور الأيام نوع من الاختصاص النسبي ، فاختص بعض العلماء كسيبويه والخليل بن أحمد في النحو ومفردات اللغة ؛ واهتم أبو عبيدة باللغة والأخبار في حين ألف الأصمعي كتباً في النوادر واللغة ، وعكف غيرهم أمثال عمر ابن شبة والهيثم بن عدي والزبير بن بكار على جمع مختلف التواريخ والتراجم[15] . قال الجاحظ : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة ، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب[16] وكلام الجاحظ هذا ليس صحيحاً لأن كل واحد من هؤلاء كما قلنا قد اختص بشيء عرف به ، ومشاركة الأصمعي كما تشير أسانيد الأغاني وغيره تؤكد شدة عنايته هو ومن روى عنه أو تتلمذ عليه بالمعاني اللغوية ونقده المتعلقة بنقد الشعر اللفظي أو اللغوي . وإذا أعيانا البحث عن هذه المشاركة في كتاب الأغاني فيكفي أن تتصفح كتاب الموشح[17] للمرزباني لتجد الدليل على صحة كلام الجاحظ . بل يمكنك أن تكتفي

---

(١٦) انظر فصل (العصبية نشيء) في كتابي (في الأدب العباسي) .
(١٧) بلاشير : تاريخ الأدب العربي ص ١٣٠

مراجعة روايات الأصمعي عن شاعر واحد كبشار أو أبي العتاهية(١٨) فلاحظ بسهولة هذه الظاهرة في حين أن أبا عبيدة وأمثاله من الأخباريين قد اهتموا بالروايات المتعلقة بنسب الشعراء وبوادرهم وما جرى لهم مع فلان أو فلان ويمكنك ملاحظة ذلك في أخبار بشار في الأغاني(١٩) . والأمر نفسه بالنسبة إلى سيبويه أو الأخفش حتى أن طابعهما في عد بعض أبيات بشار من حيث الإعراب والنحو مثلاً قد عرضهما إلى مساءة التسخط لهجائها(٢٠) .

ولكن يبقى هناك ما يؤيد أن هذا الجيل الثاني من الرواة أي جيل الأصمعي (م ٢١٥) وأبي عبيدة (م ٢١١ هـ) وأبي عمرو الشيباني (م ٢١٣ هـ) وهشام بن محمد بن الكلبي (م ٢٠٦ هـ) والمدائني (م ٢٢٥) وأمثالهم قد تركوا مؤلفات أو مدونات تخص دراسة حياة وشعر معاصريهم من الشعراء . صحيح أن كتب الفهارس والأدب قد ذكرت كتباً لهم تحمل اسم الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء ولكن الأرجح أن هذه المؤلفات دارت حول الأدب الجاهلي والإسلامي الذي كانت حركة روايته وتدوينه قائمة على قدم وساق في عهدهم . ولعل أحسن دليل على ذلك كثرة تردد أسمائهم في أسانيد أخبار الجاهليين والإسلاميين في كتاب الأغاني . ولم يرد في منقولات أبي الفرج الخاصة بالشعراء العباسيين أو المحدثين ما يدل على قيام الرواة المذكورين بالتأليف في أخبار شعراء القرن الثاني . إذ كان لابد من مرور ردح من الزمن وظهور جيل جديد من الرواة عنوا بالعصر الذي عاشه الشعراء المحدثون واهتموا بالتجارب الفنية والأدبية التي أتى بها المحدثون وليتسنى لهذا الجيل الجديد قراءة دواوين المحدثين أو الاطلاع على مجموعات تشمل عدداً كبيراً من الأغراض والفنون التي نظموا فيها لكي يتذوقوها ويدرسوها ويشيروا إلى مواطن القوة والضعف فيها ولا ننسى أن مرور مدة

---

(١٨) العمدة ٢/٨٤

(١٩) تكشف أسانيد المرزباني في الموشح هذه الناحية بوضوح في الأخبار التي نسبها لهذه الطائفة من الرواة .

(٢٠) الأغاني ج ٣ .

وثمة عامل فعال في مثل هذه الحالة ، وقد درج الناس على قلة الاهتمام بأمر النوابغ من معاصريهم ، فالأديب الذي لا يحظى بما يحظى به الأديب الشيخ من احترام وتقدير ، والمتوفى قبل وقت قصير لا ينال العناية التي ينالها المتوفى قبل سنين كثيرة .

فقد كان الزمن الذي مر على أدباء القرن الثاني سبباً لتحول أدبه وفكره وعقليته التي عرفوها ، فأصبحت جزءاً من التراث الأدبي الذي تحتم على الأجيال الجديدة من الرواة أن تعنى بأمر تدوينه والتأليف فيه .

لقد اختفت الطبقة الأولى من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كما اختفى معظم شعراء وأدباء الطبقة الثانية التي ولدت في صدر الدولة العباسية فكان على رواة القرن الثالث أن يشرعوا بتدوين آثار هؤلاء جميعاً ، فقد هيأ الرواة مجال جديد وجدوا في ممارسته مادة غزيرة للعمل . أما الأدب القديم فقد تم تدوينه بل أشبعه الرواة نقداً وتأليفاً . أضف إلى هذا أن نظرة الجيل الجديد من الرواة قد تغيرت وأن ذوقهم قد تطور ، وأن تحكيمهم وتقديمهم قد اتسع فصدروا أكثر تقبلاً لنتاج المحدثين . فالعصبية ضدهم قد ضعفت أو ضاق نطاقها عندما ظهر رواة وأدباء ومدونون عاشوا عصر المحدثين وقرأوا شعرهم فأعجبهم جمال معانيه واستعذبوه لأنه صور حياتهم المدنية الجديدة وعكس ما امتازت به هذه الحياة من مظاهر التحضر العقلي وأساليب الترف المادية والروحية . يقول أحمد أمين :

« في القرن الثالث الهجري نشأ الأدباء الذين تطفلوا وعطفوا الأدب على موائد العروبة ، وأخذوا من كل علم بطرف ، يلمون بكل شيء ، ويشبهون في عصرنا هذا الصحفيين غير المتخصصين الذين يتكلمون في جميع الأمور . ولهذا نجد العلماء يفرقون بين أنفسهم وبين الأدباء ، حتى قال ابن قتيبة : من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في

العلوم(٣١) وقد خرجت من بين فنون الأدب القديمة مجموعة من العلوم التربوية ، ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ما له منهج علمي واسلوب علمي ، سوى الفلسفة وعلم الكلام ، ثم صار لكل من التاريخ والجغرافية واللغة منهجها الخاص ، وترك العلماء ما كانوا قد ألفوا قبل من اتخاذ المعارف وسيلة للتسلية ، كما أنهم أصبحوا لا يغالون في حشد المعارف على تنوعها ، بل أقبلوا على الدراسة العلمية وعلى تنظيم المعارف ، وشعروا بما يجب من عناية ومحاسبة في تدريسها ، وكانت الدعوة إلى التدوين والتأليف قد اشتدت في القرن الثالث ، وصار الأدباء والمفكرون يدعون الى تسجيل المعارف لحفظها من الضياع(٣٢).

وقال الدكتور فرانز روزنتال : ففي القرن التاسع ميلادي(٣٣) كان من البداهة عند الناس أن النتاج العلمي والأدبي بجميع فروعه انما يتم عن طريق تدوينه ، فإن المعرفة في نظر الجاحظ ، ذلك الأديب الذي كان يحب الكتاب ، هي تلك المعرفة التي يضمن حفظها على الكتابة والتدوين ، فقد جاء في كتاب الحيوان : قال بعضهم : كنت عند بعض العلماء ، فكنت أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً ، فقال لي : اكتب كل ما تسمع فإن مكان ما تسمع أسود خير من مكانه أبيض ،(٣٤) ولم يكتف المؤلفون المسلمون عن ذكر الجزازات التي كانوا يدونون عليها الاملاءات التي كانت تلقى عليهم في الدروس ، أو ينسخون فيها اقتباسات عن الكتب التي كانوا يقرؤونها ، وكانت تصبح فيما بعد المادة الأولية في تأليفهم(٣٥).

---

(٣١) الاغاني ٣ انظر مقالي السابق (مصادر اخبار بشار) في العدد السابق من هذه المجلة .

(٣٢) المصدر نفسه .

(٣٣) الإعلان (بالتوبيخ) ٣

(٣٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ١/٢٠٦

(٣٥) يعني القرن الثالث الهجري .

لم تكن حركة التدوين في القرن الثالث في أول مراحلها التي كانت في مرحلة ثانية أرقى مما كانت عليه لأن المدونين نشطوا نشاطاً عظيماً في القرن الثاني عندما نشطت حركة نقل التراث القديم وخاصة بعد شيوع استعمال الورق . فقد نقل الجاحظ عن عيسى بن ماهان أن في مكتبة يحيى (البرمكي) ثلاث نسخ من كل كتاب (٢٦) .

ولا ريب في ان الجاحظ كان أبرز الأدباء الذين أفادوا من نتائج ثمرات التدوين فنهل منها أعظم استفادة ، حتى أصبح من أشد الناس شغفاً بكل ما هو مكتوب أو مدون . حدث الخطيب البغدادي بإسناده الى محمد بن سليمان الجوهري قال : كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل ، قال : فخرجنا يوماً للنزهة ، فبينا نحن على باب جامع البصرة ، ننتظر شيئاً أردناه ، إذ عارضتنا امرأة معها أوراق مقطعة ، فعرضت ذلك علينا ، فلم نجد فيها طائلاً ، فتركناها وانصرفنا ، وتخلف الجاحظ عنا وبقي ينتظر ، فاشتغل بها وأشار إليها ووزن لها حبة وأخذ الأوراق ، وترك التنزه ، ومضى بها الى منزله ، فلما عاد أخذنا نهزأ به ونقول : فزت بقطعة من العلم وأثره ، وضحكنا ، فقال : أنتم حمقى ، والله ان فيها ما لا يوجد الا فيها ، ولكنكم جهال لا تعرفون النفيس من الخسيس (٢٧) . وواضح ان هذه الحماسة للتدوين ولكل ما هو مكتوب كانت ظاهرة بارزة في القرن الثالث الهجري ، والدليل على ذلك هذا الاهتمام الذي نراه جلياً وواضحاً فيما كتبه الجاحظ عن الكتاب وتقريظه في كتاب الحيوان (٢٨) . ولو أردنا أن ننقل أقواله لطال هذا البحث واتسع ولكننا نود أن نؤكد أن هذا التقدير للكتاب كان عاماً في الوسط العلمي

---

(٢٦) الجاحظ : الحيوان ١/٤٩ ـ ٥٨ ومناقشة ص ٣٠

(٢٧) فرانز روزنثال : مناهج العلماء المسلمين ٢٤

(٢٨) الحيوان ١/٣٠

والأدبي منذ أواسط القرن الثاني للهجرة ، وما فتئ الجاحظ يكتب ويروي حتى بلغ الذروة في القرن الثالث . فكان أبو حاتم السجستاني ينشد قول أبي يحيى إذا قربت الكتب والدفاتر بين يديه :

فوا حسرتي أتولى وتتشوق بي
عن علم ما غاب عني منهم الكتب
هم مؤنسون وألاف غنيت بهم
فليس لي في جليس سواهم أرب
لله من جلساء لا جليسهم
ولا عشيرهم للشر يرتقب (٢٩)

وكان الجاحظ يبيت في دواوين الوراقين للدراسة والنظر ، وكان شغفه هذا يزداد كلما تقدمت به السن ولم يخفف الشيب من حماسته حتى أن الرواة زعمت أنه مات عندما انهالت الكتب عليه (٣٠) . ولم يكن الجاحظ راوية بل كان أديباً رواية ، وقد عاصر أكثر الرواة المتعصبين للقديم ولكنه لم يتعصب كما تعصبوا بل كان يتذوق أدب المحدثين ، ولهذا كانت إشاراته إلى شعر بشار وأبي نواس والسيد الحميري وأبي العتاهية كثيرة ، وكانت هذه الإشارات دقيقة في أغلب الأحيان لأن الجاحظ أديب يبحث عن الجمال أنى أينما كان سواء من ذلك الجاهليون أم الإسلاميون أم المولدون المحدثون ، أم الشعراء أم غيرهم . وعقلية الجاحظ هذه لم تكن نتيجة لمواهبه الفردية فقط بل كانت انعكاساً لعصر الازدهار والتجديد والتدوين الذي كان الجاحظ من لسانه الفصيح . وقد ترك هو وأقرانه أثراً في الوسط الأدبي عامة ، وفي النثر والشعر وروايته خاصة ، فكان ابن قتيبة الذي ترك خطى

---

(٢٩) الخطيب البغدادي . تقييد العلم ١٣٨ انظر كتاب الحيوان ١/ ٣٠
(٣٠) المصدر السابق ١٤٢

الجاحظ ولم يبلغ مداه ، من جملة أولئك الذين يصرحون بأنهم لا يحبون القديم لقدمه ولا يطلبون الحديث لحداثته ، وإنما يقرأون ويحبون ما هو جدير بالإكبار والاعجاب(٣١) .

ونحن وإن كنا نشاطر الدكتور محمد مندور في آرائه عن ابن قتيبة ولا سيما وصف طريقته في نقد الشعر وذوقه(٣٢) ولكنا مضطرون الى ان نعد كتابه عن الشعراء المحدثين دليلا على قوة الحركة التدوينية التي اتجهت الى تدوين الأدب المحدث أو انتقائه ودراسته وفق منهج [illegible] . وكانت هذه الحركة قد نضجت ان صح هذا التعبير في النصف الثاني من القرن الثالث وهي الفترة التي ألف فيها كتاب الشعر والشعراء . وإذا كان ابن قتيبة لم يهتم الاهتمام اللازم بأدب المحدثين بالقياس الى اهتمامه بالقديم ، فقد حفل عصره وبعده كثير من الأدباء والكتاب الذين أولوا هذا الموضوع ما يستحق من عناية واهتمام . وإذا كانت أكثر مؤلفات هؤلاء قد ضاعت فقد وصل منها كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز وكتاب الورقة لابن الجراح فإذا أضفنا الى هذين الكتابين مؤلفات معاصريهما التي حفل الأغاني بالروايات المنقولة عنهم أو المقتبسة من كتبهم كيحيى بن علي والحسين بن علي وهارون ابن علي آل المنجم والآخرين الذين بحثت أمرهم وكتبهم ... أقول إذا أخذنا هذه الكتب والمصنفات استطعنا أن نؤكد ان حركة تدوين ودراسة أدب القرن الثاني شعراً ونقداً قد انتعشت أو نضجت إن صح هذا التعبير . واستطعنا أن نؤكد أيضاً أن هذا النضج كان ثمرة حركة تدوين قامت على قدم وساق خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري . فدواوين أكثر شعراء القرن الثاني بالذات كانت مدونة ومنتشرة بنسخ كثيرة . ولعل أكبر دليل على ذلك الاشارات الكثيرة لدواوين الشعراء في طبقات ابن المعتز ، والقوائم الطويلة لدواوين الشعراء في كتاب الفهرست لابن النديم(٣٣)

---

(٣١) ياقوت : معجم الأدباء .

(٣٢) ابن قتيبة : مقدمة الشعر والشعراء تحقيق ديغويه باريس ١٩

(٣٣) مندور : النقد المنهجي عند العرب .

أضف إلى هذا أن كبار اللغويين والأدباء الذين عاشوا خلال النصف الأول من القرن الثالث كانوا يقومون بشرح دواوين كبار الشعراء كما فعل ابن السكيت وأبو سعيد السكري وأبو حاتم وأبو العباس المبرد وعمر بن شبة وغيرهم وغيرهم . وكانت أخبار شعراء القرن الثاني أكثر صعوبة أيضاً اذ قام الرواة بجمعها والتأليف فيها . والكتب الكثيرة التي تحمل اسم الشعر والشعراء وطبقات الشعراء التي ألفها رواة النصف الأول من القرن الثالث كثيرة يشير اليها ابن النديم وغير ابن النديم من كتب التراجم والأخبار . واذا كان أكثرها قد ضاع فمن كتب طبقات الشعراء أو الشعر والشعراء لدعبل الخزاعي ٢٤٦ وكتب كثيرة الأخرى في أخبار أبي نواس أو أخبار أبي العتاهية ... الخ .

لقد وصلت منتخبات منها في المصادر القديمة كما وصل الينا كتاب أخبار أبي نواس لأبي هفان المهزمي المتوفى سنة ٢٥٦ هـ وهو كتاب مساعد على تكوين فكرة عن الأسلوب الذي اتبعه المؤلفون الأوائل في الشعر والشعراء .

هذه المؤلفات كلها سواء في ذلك ما وصل منها وما لم يصل كانت حصيلة حركة رواية وجمع وتدوين اتجهت الى التراث الشعري والخبري الذي تركه المولدون وكان الحماس في هذا المجال وخاصة في أواخر القرن الثالث لا يقل عن الحماس الذي أبداه الرواة في رواية الأدب القديم وجمعه وتدوينه . وقد دلت على سعة هذه الحركة الجديدة ظواهر ثلاث :

١ ـ كثرة المؤلفات أو المدونات التي تركها رواة القرنين الثالث والرابع وتناولوا فيها شعراء وأدباء العصر العباسي الأول . وقد أشارت الى أسماء هذه المؤلفات كتب الفهارس والتراجم حتى أصبح ممكناً تهيئة قوائم كبيرة لهذه المؤلفات .

٢ ـ تدوين دواوين شعراء القرنين الثاني والثالث وتبويبها وشرحها وتعدد أساليب هذا الشرح والتبويب ، وقد ساعدت هذا التدوين عوامل شتى منها اهتمام الشعراء المحدثين بكتابة أشعارهم بأنفسهم أو بواسطة كتاب محترفين يستأجرونهم لهذا الغرض ومنها ظهور صنف جديد أو طبقة جديدة من رواة الشعر أخذت على عاتقها ملازمة كبار الشعراء المحدثين والاهتمام بتسجيل أشعارهم وأخبارهم أو روايتها ، ومنها أيضاً انتشار حرفة الوراقة وتطورها نتيجة لتطور الحياة العلمية واتساع حدودها وتكاثر أربابها فكانت الدواوين والكتب الرائجة تكتب بشكل نسخ ثم تباع للناس بأسعار كبيرة، ومنها ظهور الميل إلى اقتناء الكتب واهتمام الأوساط الرسمية والأفراد بتكوين خزائن الكتب كخزانة بيت الحكمة التي أمر المأمون بإنشائها وخزانة البرامكة التي كونها الفضل بن يحيى البرمكي في القرن الثاني وخزانة علي بن يحيى المنجم وابنه يحيى بن علي في القرن الثالث وخزانة محمد بن يحيى الصولي في القرن الرابع وغير ذلك من الخزائن الخاصة التي جمعها كبار العلماء والأدباء والأعيان حتى أصبح امتلاك خزانة كتب من علامات الشرف والعلم ومن دواعي السعادة والفخر ومن الدلائل على أن أصحابها من ذوي المكانة البارزة في المجتمع .

٣ ـ ظهور طبقات الرواة المتخصصين وغير المتخصصين الذين انصرفوا إلى رواية الأخبار والنوادر والأشعار الخاصة بهذا الشاعر أو ذاك حتى أصبح ذكر هؤلاء الأشخاص في أسانيد الروايات الشفهية والكتب المدونة من الأدوات اللازمة لتقوية المنقولات الخبرية والشعرية ، ومن الشروط الواجب اتباعها لإسناد الخبر وطبعه بطابع الدقة والصحة ، ومن دلائل الأمانة التاريخية ، وبمراجعة أسانيد كتاب الأغاني في تراجم شعراء القرنين الثاني والثالث وكتب التراجم الأخرى التي اهتمت بإسناد مصادرها تتكشف لنا هذه الأعداد الكبيرة من رواة الأخبار حتى صار من العسير علينا معرفة الكثير

منهم . والحق أن الباحث لتأخذه الدهشة لكثرة الناس الذين اشتغلوا برواية الأخبار والأشعار . وقد نتجت هذه الظاهرة الغريبة في تاريخ الآداب عوامل شتى أيضاً كانتعاش حركة التدوين والتأليف وكسب المال عن طريق الرواية وحب الظهور وطلب الشهرة بقران أسماء الرواة ولا سيما المغمورين منهم بأسماء كبار الشعراء والكتاب ... الخ .

***

إن دراسة مصادر الأدب الجاهلي وتتبع حركة تقييده أو تدوينه تستوجب ذكر هذه العوامل الثلاثة في شيء من التفصيل ولا ريب في أن هذا التفصيل وإن كان مجالاً يلقي أضواء كاشفة على هذه الحركة التدوينية الجديدة كما يرسم له صورة واضحة دقيقة للنشاط الذي أبداه أسلافنا في حفظ تراث الأدبي وتطوير المناهج والأساليب المتبعة في هذا الصدد . فالظاهرة الأولى أعني كثرة المدونات أو الكتب المؤلفة في الشعر والشعراء تدفعنا إلى إعداد قائمة بهذه الكتب . والظاهرة الثانية أي تدوين الدواوين وشرحها وتبويبها يتطلب ذكر الدواوين التي دونت سواء في ذلك الضائعة أو الواصلة إلينا وبيان أسماء الذين اشتغلوا في هذا المجال ومعرفة الأساليب والطرق المختلفة التي اتبعوها أو ساروا عليها .

أما الظاهرة الثالثة فقد تمثلت في كثرة الناس الذين اشتغلوا برواية أخبار الشعراء وتكشف أسرار هذه الظاهرة دراسة أسانيد شعراء القرنين الثاني والثالث التي أوردها كتاب الأغاني خاصة والكتب الأخرى عامة . ولا ريب في أن هذه الطريقة وإن كانت عسيرة منهكة يمكن أن تعرفنا على عشرات من مئات الإخباريين والأدباء الذين طمس التاريخ معظمهم ولم يبق من آثارهم غير هذه المنقولات التي حفظتها لنا المصادر القديمة .

الدكتور علي الزبيدي